كيف السبيل (*)

قلنا ان الطريقة المثلى لابطال منكرات الموالد (وغيرها) انما هي طريقة الوعظ والتعليم وقلنا ان ذلك على ثلاثة ضروب . الخطابة . وقراءة علم الاخلاق والآداب . وسلوك طريق التربية عملاً وتحققاً وهو المعبر عنه بالتصوف . ولا شك ان هذه الثلاثة لو أعطيت حقها من العناية لنهضت الأمة نهضة الاسود فاستردت مفقوداً ، وحفظت موجوداً ، وبنتها الله مقاماً محموداً ، هذه الثلاثة هي الاركان التي قام عليها بناء الاسلام وحفظ مجده بمراعاتها الى أجل مسمى وما انثلمت هذه الاركان في مكان الا انثلم شرف الاسلام وما تقوض صرح عزه في قطر الا بعد ان تقوضت هذه الاركان الثلاثة يشهد بهذا تاريخ هذه الامة لمن نظره بعين التأمل والاعتبار . ولا نطلق للقلم العنان للجري في هذا الميدان كما يشاء فقد وعدنا ان نخص القول فيما يتعلق بمنكرات الموالد ووفاء بالوعد نقول .

« الركن الاول الخطابة »

يمكن للجنة العلماء التي تجتمع للمذاكرة في ابطال المنكرات ان تكلف أحد اعضائها الفصحاء بانشاء خطب تزجر عن هذه المنكرات زجراً مفصلا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وتبين للناس حقيقة التوحيد وان الاولياء أحياء وأمواتاً « لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » بل توضح لهم ان القرآن صرح بان النبي

(*) نشرت في فاتحة العدد السابع الذي صدر في ٥ ذي الحجة سنة ١٣١٥ هـ ١١ ابريل سنة ١٨٩٨ م

(بله الولي) بشر مثلنا وانما يتميز على سائر الناس بما منحه الله به من الوحي الذي يعمل به على الوجه الاكمل ويعلمه الناس وانه ليس عليه الا البلاغ والتعليم فلا يقدر على هداية أحد من نفسه « ليس عليك هداهم » « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » واذا كانت الهداية التي جاء لاجلها لا يقدر على ايصالها للناس وانما عليه بيان طريقها فقط فهو لا يقدر على ايصال المنافع الدنيوية اليهم بالطريق الاولى « أنتم اعلم بامور دنياكم » الا ما يكون مما يتعاون به الناس بعضهم مع بعض وتنبه على ان المعجزات والكرامات ليست من الاسباب التي تناط بها مصالح المعاش وتبنى عليها الاعمال الكونية بل هي من الامور النادرة التي لا يبنى عليها حكم وليست مما يحصل بقدرة من تصدر على يديه وارادته كالافعال الاختيارية التي يتمكن من فعلها متى شاء بل لا يجريها الله تعالى على أيدي اصفيائه الا لحكمة بالغة كاقامة الحجة على صدق الانبياء في دعوى النبوة . وتشرح لهم ان الله تعالى تفضل على عباده فجعل لكل شيء يحتاجه الانسان في حياته أسباباً تؤدي اليه وهدى الناس الى اتباع هذه الاسباب فجعل لهم السمع والابصار والافئدة لعلهم يشكرونه باستعمالها فيما خلقت له على الوجه الذي تجتنب فيه المضار وتجتلب المنافع واذا هم شكروه باستعمالها زادهم نعما بهدايتهم الى ما لم يكونوا يعلمونه من أسباب السعادة بما علموه وعملوا به منها « من علم بما عمل ورثه الله علم ما لم يعلم » واذا هم كفروا النعمة باهمال أسباب السعادة التي أنعم عليهم بها تكاسلاً أو اعتماداً على الخوارق وابطال سنة الله تعالى في الكون فان الله يعذبهم بالحرمان من السعادة كما هو

منصوص في الكتاب السماوي ومشاهد في كتاب الكون الانساني « واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » وكفى بكتاب الله تعالى حجة وبمشاهدة سننه في خلقه عبرة « ولكن أكثر الناس لا يعقلون »

بمثل هذه المواضيع تنشأ الخطب ويوحى الى الخطباء ان يخطبوا بها لا بمدح الايام والشهور وذكر المواسم التي يعرفها الجمهور بل والناس أجمعون. فاذا أنشأت اللجنة خطباً منبهة على الحق منذرة بخطر الانحراف عنه في الدنيا وفي الآخرة وعهدت بها الى خطباء القطر في جميع البلاد فلاشك ان الخطباء تلبي طلبها وتمتثل أمرها ويكون لذلك أثر ظاهر « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »

ثم ان الخطابة لا تنحصر بمنابر المساجد فينبغي للعلماء الاتقياء الذين يغشون مجامع الناس في الموالد ان يخطبوا فيهم في كل مجتمع ويحذروهم من اجتراح السيئات واقتراف المنكرات ويبينوا لهم ما نزل اليهم بعبارة واضحة يسهل عليهم فهمها واذا كانت عامية أو قريبة منها يكون حسناً. أما وسر الحق لو انتهج أهل العلم هذا المنهج مع العامة لما رأوا منهم الا اقبالاً وقبولاً فانهم قوم لا يمارون بالنذر ولا يستنكفون عن الخضوع للحق لاسيما اذا جاء بعنوان الدين على لسان العلماء والصالحين. ان الذي يستمسك بالباطل اذا توهمه دينا كيف يكون حاله اذا سطع نور الحق في قلبه بالارشاد والتعليم الصحيح لاجرم ان استمساكه به يكون عظيما. انظر تاريخ الشعب المصري وتأمل حالته اليوم. تراه في جميع اطواره وأدواره خاضعاً لرؤسائه لا يفتات عليهم ولا يستبد دونهم بشيء. فجميع

ما طرأ على هذا الشعب وجميع ما هو فيه الآن انما مبدؤه ومصدره الرؤساء، سواء كان ذلك في الامور الدينية أو الشؤون الدنيوية. ربما اضر هذا الخلق (الخضوع والانقياد) بالمتخلقين به في بعض الاطوار، لكنه يكون في طور الاصلاح والارشاد أكثر للخير اسراعاً وأشد في مضماره ايجافاً وايضاعاً.

دخل كاتب هذه الكلمات احدى الخيام في المولد فرأى شيخاً من البهاليل المعتقدين وقد التفت عليه النساء واحدق بهن الرجال والبعيد من هؤلاء وهؤلاء يجتهد في ان تصل اطراف بنانه اليه فتلمسه وعند ذلك يرى نفسه سعيداً وقد شبرق القوم من التجاذب ثيابه، يرجون بركة ذلك وثوابه، فسألت من في حاشية المجتمع عن الشيخ فقيل لي هو الشيخ عبد الغني أبو الغيط وهو من الاولياء الذين يفيضون البركات، ويكشفون الكربات، فانشأت أبين لهم معنى الولي وانه انما يمتاز عن الدهماء بالعلم والعرفان، وتقوى الله تعالى في السر والاعلان، الخ. ثم بينت لهم غلوهم في الاولياء وغرورهم وانخداعهم بالدجل، أمزج الكلام في ذلك بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، ومنثورات مما يؤثر عن الصالحين، فاقبل القوم علي بعد انكار قليل وتركوا الولي والنساء ثم اجلسوني وأحاطوا بي وطفقوا يسألون واجيب. وألقيت عليهم في خلال ذلك ما يجب اعتقاده في الله تعالى واطلت بعض الاطالة في بيان الوحدانية ثم افهمتهم معنى سلوك الطريق وان جماهير المنتسبين للصوفية اليوم منحرفون عما كان عليه اسلافهم من الحق والاعتصام بالكتاب والسنة وأدخلوا في الطريق بدعاً وعادات لم يكن يعرفها الاولون. فسلموا بجميع ما قلته لهم تسليما ورغبوا الي ان أسلكهم الطريق على وفق الكتاب والسنة، كما حكيت لهم عن سلفك

الامة فاعتذرت لهم وفارقتهم وهم آسفون وما كادوا يسمحون لي بمغادرتهم حتى أظلنا الليل وشيعوني باحتفال حافل، وتقبيل أنامل،

هؤلاء هم المصريون ان شئت قل في سوادهم الاعظم انه من شر الشعوب حالة في الدنيا والدين وان شئت قلت انه خير الشعوب وأفضلها لان خير مايمتاز به الانسان هو قوة قابليته للتربية والتعليم . وللشعب المصري من ذلك السهم الاوفر والقدح المعلى وانما قصر بهم الاساتذة والمعلمون

فياهداة الامة وياورّاث الرسل ادركوا هذا الشعب بالارشاد والتعليم الصحيح الذي يهديهم الى مصالحهم الدينية والدنيوية . ادركوا قومكم من قبل ان يخرج أمرهم من أيديكم فان اراء وتعاليم أخرى تدب الى نفوسهم من حيث لايشعرون . ان الخرافات التي يتراءى للبعض انها عظيم قوة وصلابة في الدين ، حيث قد أخذت بعنوان الدين ، هي التي يخشى ان تكون العاملة على هدم الدين وتلاشيه اذا تنبهوا لفسادها وحالة العصر تقضي ان سيتنبهون

ان الحق لا يأتي من طريق الباطل وان الهدى لايحتاج في حفظه الى الضلال . فادركوا الامة قبل ان تفقدوها فانتم عنها مسؤلون « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

« الركن الثاني قراءة علم الاخلاق والآداب الدينية »

هذا العلم هو الذي يعرف الانسان حقيقة الدين ومنه تستمد الخطابة والوعظ . فان من درس هذا العلم ومارس أحكامه وتوسع فيها يعطيه

ذلك قوة على الوعظ والارشاد واذا حاول الوعظ وزاوله وثابر عليه حيناً من الدهر انطبعت في نفسه ملكة صحيحة وصار خطيباً حقيقياً (في هذا الموضوع) فنرجو من سادتنا علماء الازهر الشريف ان يعطوا هذا الفن حقه من الاعتناء ليخرج الطلاب من هذا الجامع متفقهين في الدين عارفين بحقيقته عاملين على احيائه في بلادهم وأوطانهم « ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »

الا إن قراءة أحياء العلوم خير من قراءة الكتب التي تميتها كحاشية الصبان ونحوها من الكتب المملوءة بالآراء التي هي امشاج واخلاط من فنون شتى بل ليست بشيء من الفنون . وان البحث عما يطبع ملكات الفضائل في النفس ، أفضل من التفرقة بين اسم الجنس وعلم الجنس ، وان معرفة أمراض الروح وعللها وكيفية معالجتها والادوية التي تعيد اليها صحتها هي أحرى بالعناية واجدر بالتوسع والتطويل من التوسع في معرفة علل الكلام ، والتطويل بالقيل والقال ، لاسيما على الوجه المعروف الذي يفسد الاذهان ، ولا يقوّم اللسان ، بل ان إشغال الوقت في عرفان طريق التخلية عن الحسد والعجب والكبر والترفع عن الكذب والخيانة والوقاحة وسائر الرذائل التي تفسد أعمال الانسان ، وتهبط بذويها الى أسفل دركات الذل والهوان ، هو أولى من اشغاله السنين الطوال بمعرفة دقائق أحكام المدبّر والمكاتب وأمهات الاولاد ، ونوادر الفروع في الجنايات ، والحدود والعقوبات وما أشبه هاتا من المسائل الفقهية التي أهملها أهلها فصارت آثاراً تاريخية . فما بالك بالابحاث العقيمة لذاتها التي يهبها الانسان عمره النفيس جزافاً بلا عوض كالبحث في الماهيات هل هي مجعولة أو غير مجعولة . وعن الجعل

البسيط والمركب ، والهيولى والصورة ، والوجود هل عين الموجود أو غيره ، والجزء الذي لا يتجزأ ، وعن مناكحة الجن وصحة الاقتداء بهم ونجاستهم اذا تشكلوا بصورة حيوان نجس أم لا وعن الحيوان المتولد بين نوعين مختلفين وغير ذلك المستنبطات التي وصلوا بها الى حد فرض المستحيلات العقلية والعادية (كما صرح بعضهم) والتي بها عاب الامام حجة الاسلام فقهاء عصره ، وبين انهم اهملوا الفقه في الدين (التهذيب) واشتغلوا عنه باستنباط مسائل تمضي الاعمار ولا يحتاج الى شيء منها . لا اطيل في القول فان كل من لاحظ ان العلم انما يراد للعمل وان العمل ينتج السعادة يعلم علم اليقين ان علم تهذيب الاخلاق هو أحق بالعناية من سائر العلوم وأولى بالتقديم على ماسوى العقائد بل قال بعض الائمة (وأظنه امام الحرمين) ان الاخذ بتهذيب الاخلاق علما وعملا هو أول ما ينبغي ان تتحلى به نفس الانسان وقد بينا في الفدد الرابع انه سعادة الدنيا والآخرة في التهذيب وأيدنا ذلك بالآيات العقلية والنقلية وقد صرح الفقهاء بان هذا العلم من الفروض العينية التي يجب على كل مكلف من ذكر وأنثى معرفتها فكيف لا يكون أحرى بالعناية من فنون اللغة ومعاملات الفقه الواجبة على سبيل الكفاية

لم يغفل عن هذا مجلس ادارة الازهر فقد حتم (أيده الله تعالى) في قانون التدريس اقراء هذا الفن الجليل ومن الأسف ان نرى الجماهير غير ملتفتة اليه وعسى ان يروا في الامتحان ما يحملهم عليه ، ولنمسك عنان القلم فقد جمح بنا حتى خرجنا عن الشرط الملتزم

« الركن الثالث التصوف – أو سلوك الطريق »

ليس من غرضنا الآن البحث في اشتقاق لفظ التصوف أو بيان تاريخه ولا شرح حدوده ورسومه وانما نقول ان التصوف في الاسلام هو عبارة عن التخلق بالاخلاق الفاضلة وما تستتبعه من اعمال البر والتقوى وذلك هو الاسلام الحقيقي الذي كان عليه سلف الامة الصالح ولما حدثت الفتن في المسلمين وطفق الناس ينحرفون عن الدين تميز المتمسكون بما كان عليه السلف الصالح باخلاق واعمال صاروا بها فرقة مستقلة ثم مازجت كتبهم تعاليم غريبة وحدثت لهم اصطلاحات خاصة حتى عدهم بعض مؤرخي الافرنج فرقة من الفرق التي انفرقت من الاسلام ثم طرأت عليهم احوال، وصدمتهم من المخالفين اهوال، فرقت شملهم ونثرت عقد انتظامهم حتى صار الصوفي كالعنقاء ان كان موجوداً فتحت حجاب الخفاء «فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات» وجعلوا طريق القوم شارات واشارات . وهم الذين يعرفهم القارىء بانهم مصدر تلك المنكرات . ومعهد هاتيك الموبقات (الا من حفظه الله تعالى) والذي ينفسح لنا مجال القول فيه الآن مما يتعلق باصلاحهم . هو استلفات انظار شيخ الشيوخ صاحب السماحة السيد محمد توفيق البكري الى منع الجهلة والدجالين من التصدي لاسلاك الطريق واناطة ذلك برجال من أهل العلم والتقوى يعرفون كيف يستأصلون البدع ويزيلون المنكرات ولقد ذاكرنا سماحته في هذا الموضوع فأفادنا ان ذلك من مطامح رغبته ومرامي همته وعسى ان يكون العمل قريباً